الفصل الثانى

المعلمون

قال النبى ﷺ: «من عُلِّم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار».

التعليم فى صدر الإسلام:

قد لا نخطئ إذا حسبنا أسرى قريش فى وقعة بدر الذين استخدمهم النبى ﷺ لتعليم أولاد المسلمين الكتابة أول المعلمين فى الإسلام. ولا شك فى أن عمل النبى ﷺ يدل على تقديره لمعرفة القراءة والكتابة. ويظهر بادئ ذى بدء أن التعليم لم يكن مهنة أو صناعة عند العرب. أى أن المعلمين لم ينتحلوا التعليم حرفة للمعاش بل علموا القرآن لغرض دينى، وحبا بالعمل لا للأجرة وللانتفاع؛ ولذا فلا بد أن يكون قد قام أولا بأمر التعليم كبار القوم - أولئك الذين كانوا مستقلين استقلالا اقتصاديا. ويؤيد هذه النظرية ما قاله ابن خلدون «وأن التعليم فى صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك، ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ. فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى»[1].

وإذن فقد كان المعلم من أهل العصبية أو من الهواة، غير أنه لم يبق على تلك الحالة بل استحال صناعة لابتغاء الرزق؛ ولذلك أقبل عليه من كان فى حاجة إلى تحصيل معاشه، وترفَّع عنه من لم يكن فى حاجة إلى المعاش. ومما يذكره ابن خلدون ما يأتى: «وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلّم، فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتى ذكره فى فصل العلم والتعليم. واشتغل أهل العصبية بالقيام

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠ [طبع بيروت].

بالملك والسلطان، فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للعلم، واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك»[1]. وكان شأن العرب شأن بعض الأمم الأخرى الفاتحة. إذ اشتغلت بالشؤون العسكرية والإدارية تاركة مهنة التعليم ومهنة الكتابة فى الدواوين للموالى من الفرس والروم والأقباط. ويرى الأب لامنس اليسوعى أن احتقار العرب لمعلمى الصبيان فى القرن الأول للهجرة كان ناجما عن عدم مقدرة هؤلاء على القيام بعملهم، وأنهم لما لم يقدروا على ممارسة هذه المهنة وغيرها، احتقروها وبخسوها حقها ما استطاعوا.

Le me´pris pour cette utile profession peut avoir son origine dans l'incapacite´notoire, ou se voyaient les conquerants pour la remplir. Forces de l'abandoner aux tributaires, de se mettre a leur ecole, les vainqueurs se sont venges en les depreciants"[2].

ولتأييد قولنا بكثرة عدد الموالى وأهل الذمة الذين اشتغلوا فى التعليم، نستشهد بقول ابن رسته إذ يذكر أسماء أربعة وعشرين معلما كان ثلاثة منهم من الموالى وهم: علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة كان يروى عنه مالك بن أنس وكان له مكتب يعلم فيه العربية والعروض والنحو ومات فى خلافة المنصور. وأبو معاوية النحوى واسمه شيبان بن عبد الرحمن مولى بنى تميم وكان يؤدب ولد داود بن على. وحبيب المعلم مولى معقل بن يسار[3].

فكان ترك العرب التعليم للمستضعفين والموالى يشبه بعض الشىء عادة الإغريق فى عصر بركليس من هذا القبيل. ومعنى كلمة بداجوج (pedagogue) دليل الولد أو مرشده. وكان البداجوج أشبه شىء بالخادم الذى يحمل الكتب للولد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠.

(2) Lammens: Calife Omaiyade Moawia 1. P. 361

(٣) الأعلاق النفيسة لابن رسته المنشور فى الطبعة الآتية ص٢١٦.

Bibliotheca Geographorum Arabicorum Part VII. p. 216.

ويذهب به إلى المدرسة ويرجعه إلى البيت. وكلمة «بداجوجيا» أو علم التربية مشتقة من ذلك الأصل الحقير.

مقام المعلمين الاجتماعي عند العرب:

لقد تعددت الفكاهات وكثر الهزل والمزاح على حساب المعلم العربي. ومن ألطف ما يقال عنه ما يدور اليوم على ألسنة العامة استهزاء بالمعلمين واحتقارًا لمهنتهم. وقد سمعت في صغرى الأبيات الآتية:

أما الرزالة تقسّمت على ستة على حايك وخياط وإسكاف
معلم ها الأولاد ما أصقع لحيته وبعده الخرّاز والنداف

وعلى رأى محيط المحيط:

وصقاعة قد خصصت في ستة في حائك ومنجد وإسكاف
ومعلم الأولاد ضعه بينهم وأتبعه بالحلاج والنداف

ومن خير ما كتب في هذا الموضوع مقال الجاحظ في البيان والتبيين إذ قال: من أمثال العامّة «أحمق من معلّم كتّاب».

وكيف يُرجى العقلُ والرأى عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل

وفي قول الحكماء: لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء.

وقد سمعنا قول بعضهم: الحمق في الحاكة والمعلّمين والغزّالين[1].

ومما جاء عن المعلمين في كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء»:

كفى المرء نقصًا أن يقال بأنه معلّم صبيانٍ وإن كان فاضلا

وجاء أيضًا:

إن المعلّم حيث كان معلّم ولو ابتنى فوق السماء سماء

(١) البيان والتبيين ١: ١٣٩ و١٤٠ «باب في ذكر المعلمين».

وجاء فيه أيضا:

يقال كلف إسماعيل بن على عبد الله بن المقفع أن يجلس مع ابنه فى كل أسبوع يومًا فقال: «أتريد أن أثبت فى ديوان النوكى؟»[1] والنوكى هم الحمق فاسدوا الرأى.

ثم إذا رجعنا كتاب ألف ليلة وليلة وجدنا «حكاية قلة عقل معلم الصبيان» التى يرد فيها هذا الكلام: «إن هذا شىء عجيب من فقيه يعلّم الصبيان، مع أن العقلاء اتفقوا على نقص عقل معلم الصبيان»[2].

ومن المشهور أن الحجّاج عُيِّرَ بكونه معلم صبية، كما يظهر من الأبيات الآتية:

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهرِ

وأيضًا:

فماذا تُرى الحجّاج يبلغُ جهده ... إذا نحن جاوزنا صغير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدًا من عبيد إياد
زمانَ هو العبدُ المُقِرُّ بذِلّةٍ ... يُراوح صبيان القُرى ويغادى[3]

وصفوة القول أنه حكم على المعلم بصقاعة اللحية وبالحماقة وبقلة العقل. وبهذا الحكم وضع معلمو الصبيان فى أحط مقام اجتماعى، إذا دخلوا فى صفوف النوكى ورعاة الغنم وقليلى العقل. أما أسباب ذلك فلابد أن يكون منها استحقاق بعض المعلمين هذه الألقاب. ولعلَّ أقواها احتقار العرب للمِهَن التى لا تظهر فيها أعمال الرجولية التى تتجلى فى الحرب والغزو وركوب الخيل إلى غير ذلك. وليس

(١) محاضرات الأدباء ١: ٢٣.
(٢) ألف ليلة وليلة ٣: ٧٨ [طبع بيروت].
(٣) الكامل للمبرد ٢: ٨٧، ٨٨.

بالمستغرب أن ينظر العرب هذه النظرة إلى طائفة صرفت معظمَ أوقاتها فى صحبة الصبية وتحت سقوف البيوت، عوضًا عن معاشرة الرجال وصرف الساعات الطوال على صهوات الخيل. ومثلهم فى ذلك مثل فرسان العصور الوسطى الذين حسبوا أن أعمال التعليم إنما تليق بالرهبان والقسوس، فاستغنوا عن القراءة والكتابة بأعمال الفروسية والحرب. أضف إلى ذلك أنه ربما اضطر الناس إلى احتقار معلمى الأولاد لما أظهره بعضهم من صغر النفس والمسكنة وسخافة العقل والغطرسة على الصغار وضربهم بالعصى وإذاقتهم آلام الفلَقَة.

ذلك كان الوجه المظلم فى مركز المعلم، أما الوجه المنير فلا بد من إظهار حقيقته إنصافا للمعلمين. وغير خاف أنه كما اختلفت المعاهد العلمية وكان منها الكتاب والجامع والمدرسة، هكذا تباينت درجات المعلمين من معلم أولاد إلى شيخ فمدرس فأستاذ وما أشبه ذلك. أما ازدراء العامة فلا شك أنه كان منحصرا فى معلم الأولاد وهو ذلك الرجل غير المتضلع من العلم والأدب، وهو الذى إنما اتخذ مهنة التعليم لتحصيل قوته. ولا شك فى أن السواد الأعظم من أولئك الصعاليك لو تركوا التعليم لما تمكنوا من تحصيل رزقهم من عمل آخر، فقد علم أولئك المعلمون فى كتاتيب العرب مدة طويلة. وهم اليوم لا يزالون يعلمون فى كتاتيبنا، غير أن عددهم والحمد لله فى النقصان.

أما الشيوخ الأفاضل والمدرسون والأئمة فإنهم انتموا إلى طبقة اجتماعية غير الطبقة التى انتمى إليها معلمو الأولاد، فكان لهم كرامة واحترام عند عامة القوم وخاصتهم. وكفانا مثلا على ذلك المركز الذى ناله الغزالى والشيرازى وسيبويه والخليل بن أحمد وأبو طاهر السلفى وغيرهم من المدرسين، بل يكفى مثل الأستاذ الكبير إمام الحرمين، ذلك الإمام الذى يصفه ابن خلكان بقوله: «وكان يذكر دروسا يقع كل واحد منها فى عدة أوراق ولا يتلعثم فى كلمة منها.. وحضر دروسه الأكابر من الأئمة.. وأغلقت الأسواق يوم موته وكسر منبره فى الجامع وقعد الناس لعزائه وأكثروا فيه المراثى... وكان عدد تلامذته يومئذ يقرب من الأربعمائة فكسروا محابرهم وأقلامهم وأقاموا على ذلك عاما كاملا»[1]، ذلك

(١) ابن خلكان ١ : ٣٦١، ٣٦٢.

كان مركز إمام الحرمين ولم ينله وحده بل استحقه آخرون، منهم الإمام مالك بن أنس. فمما يروى عنه أن الخليفة هارون الرشيد طلبه ليأتى إليه فأجاب: «إن العلم يؤتى» فصار الرشيد إلى منزل مالك بن أنس[1]. وقد روى المقرى قصة عن الفقيه أبى إبراهيم والحكم ترينا ما كان للمدرسين والعلماء من المقام. قال: «دخل على الفقيه أبى إبراهيم خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له: يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله فإن الأمر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت بإعجالك، فقال له سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجلة فارجع إليه وعرّفه وفقه الله أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله - تعالى - معى طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ فهم يقيدونه عنى وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضى الله وطاعته»[2].

هذه بعض الأمثلة التى تبين الفرق بين مقام معلم الكتاب عند الناس وبين مقام الأساتذة الكبار. ولربما انطبق على المعلمين قول الجرجانى:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهمو ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

ولتتمة الكلام نأتى برأى الجاحظ، إذ قال: «والمعلمون عندى على ضربين منهم من ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة. فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التى دونهم... وكيف تقول مثل ذلك فى هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل كميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء ابن أبى رباح ومثل عبد الكريم بن أبى أمية وحسين المعلم وأبى سعيد المعلم. ومن

(١) محاضرات الأدباء ١ : ١٤
(٢) نفح الطيب ١ : ١٧٦

المعلمين الضحاك بن مزاحم أبو معبد الجهنى وعامر الشعبى فقد كانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان»[1].

وإذا كان المعلمون على ضربين فى زمن الجاحظ فهم على ضربين أيضا فى هذا الزمن، فشتان ما بين بعض المعلمين وبين طبقة الشيخ محمد عبده والمعلم بطرس البستانى وغيرهما.

المعلمون وأجر التعليم:

لتقاضى الأجر على التعليم نظرتان الواحدة نظرية والأخرى عملية. فالأولى تميل إلى جعل كل التعليم مجانا - أن يكون احتسابا لا اكتسابا - وعلى الأخص تعليم الدين والقرآن. ويرى المستشرق الشهير جولد تسيهر (Goldzihr): «إن المتدينين فى الإسلام حبذوا أن يكون التعليم مجانا كما حبذه أهل بقية الأديان»[2].

أما النظرة العملية فقد أباحت أخذ الأجر وإليك رأى الغزالى فى هذا الموضوع: «مسألة: فإن قلت أليس يجوز عند الشافعى - رضى الله عنه - أخذ الأجرة على تعليم القرآن والنكاح بتعليم القرآن لما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «زوجتكها بما معك من القرآن» وهذا تعليم لغير الله - تعالى؟ فأقول: هذا جائز ونزيد على هذا فنقول: يجوز أخذ الأجرة على الأذان وإقامة صلاة التراويح. ويجوز للمعيد أخذ الأجرة على مسائل معينة يكررها. وللمدرس مسائل يعينها يتعب نفسه فيها ولا ينبغى أن يظن أن إمام صلاة التراويح يأخذ الأجرة على الصلاة. ومعلم الفاتحة له أن يأخذ الأجرة وإن كان تعليمها واجبا على المتعلم. وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم. فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة ويأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود»[3]. هذا رأى الغزالى نردفه بآراء الأئمة مالك وأحمد والشافعى فقد أجازوا أخذ الأجر على

---

(١) البيان والتبيين ١: ١٤٠.

(٢) راجع المقالة النفيسة فى «التربية فى الإسلام فى دائرة معارف الدين والأخلاق».
Encyclopaedia of Religion and Ethics Vol V. See Muslim Education

(٣) فاتحة العلوم للغزالى ص ١٦.

الرقيـة والطب وتعليم القرآن[1]. فيظهـر أن كبار الأئمة أجازوا أخـذ الأجر على تعليم القـرآن. وإن أجازوه على تعلـيم القرآن، فـلا ريب أنهم لم يحرمـوه على تعليم بقية المواضيع المدرسية. غير أنه إذا أنعمنا النظر فى كلام الغزالى، وجدنا أنه إنما يجيـز الأجز كواسطة فقط لا كـغاية. فهو يجـيزه ليتفرغ المدرس لـتدريسه ولا يُزعَجَ فى أمور دنيوية مثل تحصيل الرزق لمعيشة العيال.

وأخذ الأجـر لم يبق مبدأ نظريا بل طبق فـعلا. وكان عـدد المعلمين بالأجر كبيرا. وقـد ذكر المقرى أن أهل الأندلس كانوا «يقرأون جمـيع العلوم فى المساجد بأجرة»[2]. وذكر أيضـا أن أبا العباس كان «يعـلم الحساب والنحو ويأخـذ الأجرة على ذلك»[3]. وقال ياقوت: أن الرياحى «نزل البصرة وكان يعلم الصبيان بالأجرة وكان شاعرا»[4]. ويقول ياقوت أيضا عن محـمد بن أحمد الكركانجى، أردت أن أقرأ القـرآن على بعض القراء فامـتنع علىّ. ثم قال لى: تقرأ علىّ كل يوم عـشرا وتدفع مثقالا من الفضة. فقبلت»[5].

وإذن كان أخذ الأجرة على التـعليم جائزا من الجهة الشرعيـة إذ أباحه كبار الأئمـة، وهكذا نرى أن المبدأ طبق فـعلا. وبالطبع كـان ذلك لحاجـة المعلمين إلى الرزق، غير أنه لا يمكـننا الوقوف عند هذا الحد دون أن نبحث فى أمـر تحريم أخذ الأجر. فإنه يظهـر من ذكر أخذ الأجر أنه وجد سـبب خاص لذكره. فلو لم يكن خلاف فى مسألة الأجر لما ذكرت فى الاستشـهادات المذكورة آنفا. فضلا عما رواه صاحب العـقد الفريد: «لا يكون العالم عـالما حتى تكون فيه ثـلاث خصال - لا يحتقر من دونه. لا يحسد من فوقه. لا يأخذ على العلم ثمنا»[6]. وممن لم يأخذ الأجر على التعليم الضحاك بن مزاحم وعـبد الله الحارث إذ «كانا يعلمان الغلمان ولا يأخذان الأجر»[7]. ولا يخفى أن ذلك كان فى أوائل القرن الثانى للهجرة.

(١) نفح الطيب ٣: ٦٨.
(٢) نفح الطيب ١: ١٠٢ .
(٣) نفح الطيب ٤: ٣٥٨ .
(٤) معجم الأدباء ٢: ٢٣٩ .
(٥) معجم الأدباء ٦: ٣٤٠ .
(٦) العقد الفريد ١: ٢٦٧.
(٧) ابن رسته ص٢.

ويحكى عن جعفر بن محمد الموصلى (٣٢٣هـ) أنه «كانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم لا يمنع أحدا من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسرا أعطاه ورَقا وورقا. تفتح فى كل يوم»[١]. ويظهر أن الناس عيرت بعض المعلمين بأخذ الأجر على التعليم. ومما يذكر عن المبرد أنه «كان لا يعلم مجانا ولا يعلم إلا بأجرة»[٢]. وعلى كل حال، لو لم يكن خلاف فى مسألة الأجر لما قيل عن فلان أنه علم بأجر أو كان يأخذ أجرا.. إلخ. ولو لم يكن تباين فى الرأى لما ذكر الأجر البتة.

ومهما كانت الحالة بشأن أخذ الأجر قبل زمن نظام الملك، فمما لا شك فيه أنه أصبح مألوفا بعده، إذ رتب ذلك الوزير المعاليم والرواتب للمعلمين وبذلك جعلهم تحت مراقبة الحكومة وطوع أمرها. ولكن هذا النظام لم يرق جميع الأساتذة، وقد أدلينا على ذلك فى عدم رضى أبى إسحق الشيرازى عن النظامية فى بغداد. ومن الغريب أن نجد فى أخبار المدرسة الظاهرية فى القاهرة «أن لا يستعمل فيها أحد بغير أجرة ولا ينقص من أجرته شيئا»[٣]. فلماذا وضع هذا الشرط؟ فهل رفض بعض الأساتذة أن يأخذوا الأجر؟ أو هل كان الغرض منع تسخير المعلمين بلا أجرة؟

كمية المعاليم:

اختلفت قيمة المعلوم كما اختلفت الطرق فى دفعه. فمنهم من أخذ الأجر عند ختم القرآن أو إكمال كتاب سيبويه أو الألفية وما شاكل ذلك. فدفع الأجر إذاً ليس فى آخر اليوم أو الأسبوع أو الشهر، بل عند إتمام العمل. أى أن المقياس لم يكن الوقت بل النتيجة العملية. ومما يرويه ياقوت «أن يهوديا بذل للمازنى مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه فامتنع»[٤]. وقال أيضا أن أحدهم كان يدفع مثقالا من

(١) معجم الأدباء ٢: ٤٢٠.
(٢) معجم الأدباء ١: ٤٧.
(٣) الخطط المقريزية ٤: ٢١٧.
(٤) معجم الأدباء ٢: ٣٨٢.

الفضة على قراءة عشر من القرآن كل يوم[١]. ويقول جولدتسيهر أن شمس الدين السيوطى أخذ درهما على تعليم كل بيت من أبيات الألفية[٢]. وإليك بعض الأخبار التى رويت عن المبرد «قال أبو محمد عبد الله بن درستويه النحوى: حدثنى الزجاج قال كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه وكان لا يعلم مجانا ولا يعلم إلا بأجرة. فقال لى أى شيء صناعتك قلت أخرط الزجاج وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك فى كل يوم درهما وأشرط لك أن أعطيك إياه أبدا. قال فلزمته وكنت أخدمه فى أموره مع ذلك وأعطيه الدرهم فينصحنى فى التعليم حتى استقللت»[٣].

ذلك كان نوعا من الأجر، غير أنه تطور حتى أصبح مرتبا يدفع فى كل شهر كما تدفع المرتبات اليوم. وقد اختلف المعلوم طبعا فكان على حسب مقدرة وشهرة الأستاذ وعلى حسب العصر. ويجب أن لا يغيب عن الذهن أيضا أن قيمة الدرهم والدينار اختلفت على تقلب الأيام وعلى اختلاف البلدان العربية.

ذكر ابن جبير أن عمالة المعلم فى مصر فى القرن الثانى عشر للميلاد كانت حول الخمسة دنانير فى الشهر إذ قال: «فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر وهى عشرة مؤمنية، ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه»[٤]. وأما الدينار فكانت قيمته نحو النصف جنيه عندنا. ويقول السبكى أن أحد المدرسين امتحن فى خلق القرآن ولم يقر بخلقه فخسر مرتبه الذى بلغت قيمته ألف درهم فى الشهر[٥]، وإذا كان الدينار يساوى عشرين درهما كان هذا المرتب يساوى خمسين دينارا أو خمسة وعشرين جنيها فى الشهر. ومما ينص عليه المقريزى أن صلاح الدين أنشأ المدرسة الناصرية فى القاهرة «ورتب مدرسا يدرس الفقه وجعل

---

(١) معجم الأدباء ٦ : ٣٤٠.

(2) Encyc, of Religion & Ethics Vol V. See Muslim Education.

(٣) معجم الأدباء ١ : ٤٧.

(٤) رحلة ابن جبير ص١٢.

(٥) طبقات الشافعية ١ : ٢٠٩.

له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارا معاملة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم»[١]. وكان معلوم الشيخ مجد الدين فى المدرسة السيوفية أحد عشر دينارا فى كل شهر[٢]. ويقال فى أخبار المدرسة البلطاسية «أن راتب مدرسها وهو الشيخ قوام الدين مائة رغيف وكبش واحد وخمسون درهما فى اليوم»[٣].

فيظهر من هذه الأمثلة أن مرتب المدرس كان يتراوح بين الخمسة دنانير والخمسين فى الشهر. وهذا يعادل الجنيهين إلى الخمسة والعشرين. وإذا سمح لنا أن نقدر رأيا قلنا أن كلام ابن جبير أقرب إلى الحقيقة. أى أن مرتب المعلم كان حول الجنيهين أو الثلاثة فى الشهر، ولا يخفى أن الجنيهين فى القرن الثانى عشر للميلاد ربما كانا يعادلان اليوم خمسة عشر جنيها. ولا شك فى أن المدرسين ذوى الشهرة كانوا يتقاضون ما يتراوح بين الأربعين والخمسين دينارا غير أننا نظن أنه لم يحصل على ذلك المبلغ إلا العدد القليل.

المعلمون وألقابهم:

نشأت الألقاب التعليمية عند الإفرنج من أصل شبيه بالأصل العربى. ورجع الاثنان إلى الإجازات أو إلى الوقت الذى أظهر فيه الطالب الكفاية للتعليم. فبعد أن أنهى الطالب الأفرنجى دروسه واستحق أن يكون معلما أعطى لقب (بكالوريوس) وهو أحط الدرجات فى سلم التعليم. ثم لقب بلقب معلم أو أستاذ. وأخيرا منح رتبة الدكتور وهى أعلى رتبة وصل إليها المعلم. وكان (Magister) للمعلمين عند العرب رتب وألقاب. وهى، وإن لم تعط لحامليها فى حفلات رسمية، منحت لهم حسب استحقاقهم، وكان المانح إما أساتذتهم أو أهل العلم أو الشعب أو الحكومة. وإليك بعض الرتب المعروفة:

---

(١) الخطط المقريزية ٤: ٢٥١.

(٢) الخطط المقريزية ٤: ١٩٦.

(٣) المشرق ١٠: ٣٨٥.

أ- المعلم:

يظهر أن هذا اللقب كان أحط الرتب العلمية، إذ كثيرا ما قرن بتعليم الأولاد والصبية، والكتاب والكتاتيب. ولقد أظهرنا ما لمعلم «الأولاد» و«لمعلم الصبيان» من المقام الاجتماعى عند الناس. وإذا كان أحد المعلمين ذا فضل ذكرت الأخبار ما له من الفضل كى يعوض ذلك عما يخسره من كونه «معلما». فقد قيل عن أبى غالب عبد الحميد الكاتب: «وكان فى الكتابة وفى كل فن من العلم إماما. وكان أولا معلم صبية»(١). ويذكر ياقوت أن أحمد بن سهل البلخى «كان معلما للصبيان ثم رفعه العلم إلى مرتبة علية»(٢). ومما جاء فى تحقير إسماعيل بن عباد ما يأتى: «لو جرت الأمور على موضوع الرأى وقضية العقل لكان معلما»(٣). وخلاصة القول أن لقب «معلم» لم يدل على الأدب والعلم والمقدرة والمكانة الاجتماعية بل دل على عكس ذلك.

ب- المؤدب:

من الصعب إظهار الفرق بين العلم والمؤدب. هذا إذا درسنا الفرق فى الاستعمال أو القرينة. وأما من جهة الاشتقاق فربما كان المعلم الذى اهتم بالمعلومات، والمؤدب الذى اهتم بالأخلاق والآداب التى يجب أن يتحلى بها الطلبة. ولا يستبعد أن يكون المؤدب معلما خصوصيا يذهب إلى بيوت الخاصة لتأديب أولادهم. وكثيرا ما يرد هذا الاستعمال فى كتاب الأغانى إذ قيل أن أبا إياد كان «مؤدب» المعتصم. وكان عجرد «يؤدب» ولد العباس بن محمد الهاشمى. وكان قطرب «مؤدبا» لولد المهدى. وكان المبارك «مؤدب» الفضل بن يحيى. وكان أبو حفص النحوى «مؤدبا» لآل طاهر. وتدل هذه الأمثلة على أن المؤدب كان معلما خصوصيا. وقد يستنتج أيضا أن كلمة «مؤدب» كانت مرادفة «لمعلم» إذ تستعمل كلمة «مؤدب» فى كتاب الأغانى و«معلم» فى البيان والتبيين. فجاء فى

---

(١) ابن خلكان ١: ٣٨٦ .

(٢) معجم الأدباء ١: ١٤١ .

(٣) معجم الأدباء ٢: ٢٨٠ .

الأغانى «أن الحجاج بن يوسف أراد «مؤدبا» لولده»[1]. أما الجاحظ فذكر أن الحجاج قال «لمعلم» ولده»[2]. فكان المؤدب عند الأصبهانى هو المعلم عند الجاحظ.

جـ- المدرس:

غير خاف أن المدرس هو اسم فاعل من درس وأنه القائم بالتدريس فى المدرسة. وإذا تمسكنا بتعريف «المدرسة» كمعهد راقٍ مثل الكلية، أصبح المدرس أستاذا أرقى درجة من المعلم والمؤدب. ولا شك فى أن المدرس جاء مع المدرسة فى القرن السادس للهجرة، ؛ ولهذا لا ذكر له قبل ذلك الوقت، ومما يبين أنه فرق بين المعلم والمؤدب والمدرس ما يذكره المقريزى: «وشرط أن يكون فيها مدرس مالكى ومدرس شافعى ومؤدب أطفال»[3]. فيظهر من هذا أن المدرس درّس الشبان والمؤدب أدب الأطفال والصغار. وللإيضاح نأتى بتعريف القلقشندى للمدرس إذ قال: «إن المدرس هو الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك»[4].

د- المعيد:

تأتى الإعادة عند القلقشندى بعد التدريس أى أن مقام المعيد يأتى مباشرة بعد مقام المدرس. «وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد (المعيد) للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه»[5]. وكثيرا ما يرد ذكر المعيد فى الكتب العربية فيقول ياقوت عن أحدهم أنه «أقام بحلب معيدا بمدرسة الزجاجين قانعا باليسير من الرزق فإذا زادوه عليه شيئا لم يقبله»[6]. وعند زيارة ابن بطوطة

(١) الأغانى ١٨ : ٧٨ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩٢ .
(٣) الخطط المقريزية ٤ : ٢٥١ .
(٤) صبح الأعشى ٥ : ٤٦٤ .
(٥) صبح الأعشى ٥ : ٤٦٤ .
(٦) معجم البلدان ١ : ١٨١ .

المدرسة المستنصرية ببغداد وجد فيها معيدين يساعدان المدرس فى عمله. وكيفية ذلك أن «يقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتمًّا وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه»(١). ومن وظائف المعيد وصفاته، التى يذكرها ابن جماعة الكنانى فى تذكرة السامع والمتكلم، أن يكون «من صلحاء الفضلاء أو فضلاء الصلحاء صبورا على اختلاف الطلبة حريصا على إفادتهم قائما بوظيفة اشتغالهم.. وينبغى للمعيد فى المدرسة أن يقدم اشتغال أهلها على غيرهم فى الوقت المعتاد أو المشروط إذا كان يتناول معلوم الإعادة؛ لأنه يتعين عليه ما دام معيدا أو اشتغال غيرهم نقل أو فرض كفاية. وأن يعلم المدرس والناظر لمن يرجى فلاحه ليزاد ما يستعين به فيشرح صدره وأن يطالبهم بعرض محفوظاتهم ممن لم يعين لذلك غيره. ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس ولهذا سمى معيدا»(٢).

هـ- الشيخ:

الشيخ لغة الكبير فى السن. ويقول محيط المحيط: «إطلاق الشيخ على الأستاذ والعالم وكبير القوم ورئيس الصناعة إنما هو باعتبار الكبير فى العلم والفضيلة والمقام ونحو ذلك». واستعمل لقب «شيخ» كمرادف للقب «أستاذ» إذ يرد عند ابن خلدون «سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم». و«لقد سمعت كثيرا من شيوخنا... إلخ» وقيل عن كثيرين أن الواحد منهم «كان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ». فإذا كان لقب «الشيخ» لقبا علميا تعليما كما كان دينيا. ويظهر أن هذا اللقب جاء متأخرا إذ لم يرد له ذكر فى كتب الجاحظ ولم يرد فى كتاب الأغانى ولا فى الكامل للمبرد.

و- الأستاذ:

أطلق هذا اللقب الفارسى أولا على أصحاب الصنائع. ويدعو العامة اليوم «بالأسطا» من يتقن إحدى الحرف. ثم أطلق على من أظهر مهارة فى التعليم. أما

(١) ابن بطوطة ص١٤١ .

(٢) تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم ص٤٤ [مخطوط فى برلين نمرو ١٤٢].

اليوم فقد ساء حظ هذا للقب وابتذل استعماله حتى أصبح ينادى به معلمو الكتاتيب كما ينادى به الأساتذة الكبار. وممن لقب بهذا «الأستاذ أبو منصور إذ كان ماهرا فى فنون عديدة» ومنهم أيضا الأستاذ أبو الحسن بن جابر.

ز- الرُّحلة:

ومن ألقاب أكابر العلماء «الرحلة» وهو الشهير فى العلم والتعليم حتى أن الطلبة ترحل إليه من كل ناحية.

ح- العالم:

أطلقت هذه الرتبة على كل من علم للتفرقة بينه وبين الجاهل. وكان العالم أولا الواقف على العلوم الدينية.

ط- الإمام:

لا ريب فى أن رتبة «إمام» لا على درجات السلم العلمى. فقد أعطى هذا اللقب الشريف لمن أظهر نبوغا لا مراء فيه. وكفى بذكر إمام الحرمين والغزالى والأئمة الأربعة: أحمد بن حنبل وأبو حنيفة والشافعى ومالك. هذا، ويوافق الاشتقاق اللغوى اللقب الفنى لأن الإمام هو من كان فى مقدمة القوم فعلا، أى أنه كان هو المتبوع والناس أتباع. فالإمام فى العلم المرجع والثقة فى موضوعه. وإن أردنا أن نقابل لقب «إمام» بألقاب هذا العصر تحتم علينا مقابلته بالألقاب التى تليق بسبنسر وداروين وباستور ومن كان فى طبقتهم.

ونقول فى الختام أن استعمال هذه الألقاب كان يختلف بحسب اختلاف البلدان والعصور فقد ذكر الرحالة المقدسى أنه سمى بأسماء كثيرة، قال: «ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها: مقرئ، فقيه، مذكر، إمام، مؤذن، خطيب، متأدب، متفقه، متعلم، أستاذ، شيخ؛ وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها»[1].

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٤٣ [طبع ليدن].

لباس أو زى العلماء والمعلمين:

للعلماء زى خاص فى كل بلد. فها هم الأساتذة عند الإفرنج يلبسون جبة العلم فى المحافل الرسمية، ويلبسها بعضهم فى أثناء إلقاء الدروس أيضا.

ويرجع الأصل فى هذه الألبسة إلى العصر الذى كان التعليم فيه فى أيدى الرهبان ورجال الدين الذين لبسوا الجبب لوقاية أنفسهم من قارص البرد. وأما اليوم فما هى إلا رموز وشارات علمية تدل ألوانها المختلفة وطياتها المتنوعة على رتبة الأستاذ ومقامه العلمى.

أما العرب فأهم شاراتهم العلمية العمامة والجبة والطيلسان[١]. ومع أن العمامة لبسها كل العرب من علماء وغيرهم، فقد كانت عمامة العالم أكبر من غيرها. وعلى الرغم مما طرأ على الألبسة العربية من الطوارئ والتغييرات، فإن لباس الدين والعلم لم يتغير إلا قليلا. وها هما العمامة والجبة اليوم لا تزالان من شعار ولباس أهل الدين والعلم معا.

ولبس العلماء الطيلسان: وهو شاش يوضع على الرأس أو على الكتف قال ابن جبير أنه وجد خطيب مكة وعليه طيلسان شرب رقيق[٢]. وذكر ابن بطوطة أنه رأى عالما عليه طيلسان أسود. ويقول المستشرق دوزى أن العلماء والشيوخ فى الأندلس لبسوا الطيلسان ووضعوه على رؤوسهم[٣]. والمقدسى يقول: «أما الفقهاء والكبراء فيتطيلسون.. وبمرو أنصاف العلماء يجعلون الطيالسة على أحد أكتافهم مجتمعة فإذا أرادوا أن يرفعوا فقيها أمروه بالتطيلس»[٤]. ومن الغريب أن الإفرنج اليوم يمارسون بعض هذه العادات فإن جبة الطالب لا طيلسان لها ولكنه حينما ينال رتبة البكلوريا يتطيلس. ولقبعة الطالب اليوم شرابة يجب أن توضع إلى الشمال مادام فى دور الطلب. وأما عند إنهاء الطلب وعند التقدم إلى رئيس الجامعة لنيل

---

(١) أول من اتخذ للعلماء زيًا خاصًا الإمام أبو يوسف.

(٢) رحلة ابن جبير ص٦٧ .

(3) Dozy: Vetements Arabes p. 278 (Amsterdam 1845).

(٤) أحسن التقاسيم ص٣٢٨ .

اللقب العلمى تنقل الشرابة إلى اليمين. ومن رأى المستشرق لاين (Lane) أن طيلسان العرب يشبه طيلسان الإفرنج لا فى حالته الحاضرة فقط بل فى أصله أيضا.

"I am inclined to think that it is similar not only in this respect but also in its origin to our academic gowns and hoods"(1).

وبما أن العرب سبقوا الإفرنج فى بناء الكليات والمدارس، وسبقوهم كذلك فى استعمال الألقاب والشارات العلمية، كان من الممكن أيضا أن نرجع العادات الإفرنجية المختصة بهذا الأمر إلى أصل عربى.

(1) The Thousand and One Nights Vol 11 P. 512.

obeikandl.com